الجبر والاختيار

فى كتاب الفصول والغايات

[مهداة إلى الأستاذ محمود حسن زناتى]

للأديب السيد محمد العزاوى

— ٢ —

« وقول الحق أمثل من السكوت ، واستقامة العالم لا تكون ، ولذة الدنيا منقطعة ، وخير الليت غير جلى ، إلا أنه قد لقى ما حذر ، فاسع لنفسك الخائفة فى الصلاح »

هذه الفكرة مسيطرة عليه فى كل الكتاب . هو مؤمن بها إيماناً عميقاً جاء من تنزيهه الله عن العبث واللهو ، وهو أصل يقرره فى اللزوميات كثيراً :

أرى فلكاً ما زال بالخلق دائراً ... له خبرٌ عنا يُصانُ ويُخبأُ

وهو يبحث عنها بوسيلته هذه فلا يهتدى إليها ، فكل ما كان للمعرى من اضطراب أو حدّة فإنما منشؤه هذه الحكمة المماة عليه . هو يقرر بأن الله « يقدر أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بَنانه مجاريَ دمه ، ويجد الطعم بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبيه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ... » ثم هو يعترف بأن « ... ذلك فى القدرة يسير » ولكنه يتساءل عن حكمة الله فى هذا النظام ، وهذا النوع من الخلق ، ولم كان هذا ولم يكن ذاك ؟ وهو يرى أن « مؤتى الملك ملكه قاصرُ الصعلوك على عدَمه ، وكاسىَ الجميل حُلّة الجمال ، هو سالبها القبيح ... ، نبيد الله العطيّة والحرمان[1] » وهو يرى « أن الفقير خص بالتوقير » ولكنه لا يدرى لماذا فيقول : « والله العالم لِمَ ذاك[2] » . فهو يتساءل على أى نظام كانت هذه العطية وذاك الحرمان ، وعلى أى اعتبار خص الفقير بالعبء الثقيل ، ما سبب هذا التفريق فى المنزلة والرزق « والناس بنو رجل وامرأة » وينتهى إلى تلك الحال من استسلام الحائر : « ومن عند الله قسمت الجدود »

(١) ص ٣٩ (٢) ص ٢٤٠

تواق لمعرفة هذه الحكمة المماة عليه ، يطلبها ويجد فى الحصول عليها ، فإذا ما ظن أنه قد أوشك أخلفت ظنونه الحكمة الإلهية وخذلت عقله . وليس أدل على حاله تلك من وصفه نفسه : « إنما أنا كرجل بُلِىَ بالصدى ، لا يجد وِرداً ولا مورداً ، فهو ظمآن أبداً ، إن ورد غَرُوفاً ، وجده مصفوفاً ، وإن صادف نَزُوعاً أعوزته الآلةُ والمعين ، فبينا هو كذلك هجم على رجل ينزع بغرب ، فشكا إليه فرط الكرب . فقال : رِيُّك إن شاء الله قريبٌ فأعنّى على انتزاع المرويّة ، فلما كان الغرب بحيث يَرَيانِ غدرت الوذم ، وخان المناج[1] »

حائر والحيرة توجب عليه الحذر والاحتياط . فهو ليس على بينة مما يراد به وبالكون ، فهو إذا قال : « ما أنشأك ربك لعبث » ، واثق أنه لم يخلق لعبث ، وإن لم يستبن وجه الحكمة فى هذا الإنشاء ، فهو يحتاط ويحذر مما قد يكون من أمر هذه الحكمة فيقول : « أنأ عن القبيح والرَّفث ، وسبِّح فى النهار والملث[2] » وهو يصرح بأن : « الحازم الذى لا يأبس ، يُمجِّد الله ويقدس ، وبغير طاعته لا يَنبس ، لعل الأجل يُدركه من أهل الصفاء[3] » . أما ما دون ذلك فهو لم يجزم بشىء أبداً . فطبيعته تقتضى ألا يكون هناك يأس ، وهى كذلك تقتضى أن لا ثقة ؛ وإنما هو يقول : « أحسنوا إملاءكم جماعة الملأ ، فسوف يَنفد العدد ولو أنكم الرمال ، وتخبو النار ولو هجم على لهبها النجوم ، وتخف بكم النُّوب ولو أنكم الجبال حلوماً ، الظالم بئس ما فعل ، والمظلوم ضعيف مُهتضم . فسعد امرؤٌ لا ظالماً وجد ولا مظلوما[4] » . فهو لا يأمن لشىء ولا يثبت شيئاً ، وإنما يأمرك بالحيطة والحذر لأنه لا يدرى يقيناً مما يراد به شيئاً ، ولا يشك فيه شكاً صريحاً . فإذا ما كان الله حكيماً ، وهو ما يقرره المعرى تقريراً ، وإذا ما كانت حكمته خافية فالخير للانسان أن يحذر ويحتاط . وهذا الحذر والاحتياط لن يحصلا إلا بالعبادة والنسك والتطهر والتحلى بالفضائل ؛ ولكن ما هى هذه الحكمة ؟ ما شأنها ؟ لم أجرت أموراً على وجه دون آخر ؟ لم تسخر من كفاح الإنسان وتفرض عليه ما تريد ؟ لم لا تعدل بين المخلوقات : بين الإنسان والحيوان والجماد ، بل بين

(١) ص ٣١٦ (٢) ص ٦ (٣) ص ١٩ (٤) ص ٤٣٦

الإنسان والإنسان، والإنسان والحيوان والحيوان؟ على أى أساس بنت أحكامها هذه ؟ هو لا يدرى من كل ذلك شيئاً فيحار حيرة تأتيه من رفضه رفضاً شديداً أن يكون العالم ليس بذى حكمة ، وأن يسير إلى غير غاية وإلى غير غرض ، ويرمى إلى غير قصد

وأبو العلاء مؤمن بأن هذه الحكمة تنظم الكون ، وتسيطر عليه سيطرة لا تدع لقوة ما أن تمد هذه السيطرة «فرب نطيف... يُعطف إلى الخير فلا ينعطف ، وكيف ولم يأذن خالقه بانعطاف » أو تحول من حكمها شيئاً « فيأيها الجامح لا يغنيك الجماح ، المالك أضبط لك من عائشة لما وقع فى النزوع ، جل عن التشبيه والقياس فى لجامك أطراب كالظراب »[1] وإنها تنظمه نظاماً آلياً قوياً لا يشذ ، ولا يحيد ؛ فإذا ما أدرك ذلك صرح : « قد فررت من قدر الله فإذا هو أخو الحياة ، هل أطأ على غير الأرض ، أو أبرز من تحت السماء ؟ ! أدلجت فأصبح إمام المدلجين ، وهجّرت وهو مع المهجرين . قال وعرس مع القالة والمرسين . »[2] فلا يمكن للمرء أن يحيد عما يراد به ، فهو مجبور على ما يأتى من أفعال « والمرء يقدر ولغيره الأمور، يحسب أنه يملك ويحوز ، كذب! لله النفوس[3] » ، وليس أصرح من هذا النص ولا أدل فى بيان فكرته : « إنما أنا فرير فى ربق . قد أعدت له المدية ، ينتظر به أمر الملك فتجرى الشفرة على الأوداج »[4] وإن ذلك ليزعجه ، ويقلق خاطره فيقول : «شغلنى عن النسب، وقول فى النسب ، أنى أسلك من الحمام نيساً ، أذهب النوم وأطال الأرق وأقل رغبتى من الشرف أنى لا أجد عن ذلك مذهباً[5] « أينما تسيروا يصبحكم الله كما صحب من كان قبلكم ، وله من العلم عين علتكم ، وإن تصبحوا وراء شق الثعلب فالقدر معكم ، لا فرار من قضاء الله[6] » ثم يوصى بعد ذلك أن « اصطبروا على ما حكم إنه واعى الكلمات » و « دع الأقدار وما تريد فإنها لا تصرّف على اختيار المخلوقين . واعلم أن رزيتك لا تهجم إلا عليك[7] » و « من عند الله سعد المجدودين[8] » و « النشر على جبهة فاعله موسوم » و « ربك أولع بالأنفس غرامها[9] » فهو يستكين ، ويستسلم استسلاماً شديداً حين نضرب مثل القطاة التى « تنزل إلى شرك الوليد ، وهى فرحى بما لاح لها من الرزق ، فيؤول أمرها معه إلى أحد ثلاثة أشياء : سُخط مرعف ، أو سجن حرج ، أو عذاب مبرح ، فامس بما فعل ربك راضياً[1] »

هذه الفكرة تقوم من فلسفة المعرى فى « الفصول والغايات » مقام الوزن فى القصيدة . فهو خفى ولكنه يحكم القصيدة فلا يخرج عليه بيت أو جزء من بيت . وهى قطب تدور حوله الأفكار بمعانيها المختلفة وألفاظها المتباينة . فكل تفكير المعرى إذن يدور حول هذه الفكرة أيًّا ما كانت صوره ومعانيه وألفاظه . فإذا ما نظر فى المجتمع فمن وراء هذا المنظار ؛ وإذا ما شمل الكون بتفكيره فعلى هذا الهدى . وهو قد يصطنع من الأساليب الغريب ، ومن فنون الكتابة ما يصرف المرء إلى ظواهر الأشياء ؛ ولكن الأمر لا يزال عند ما قررت من قبل . فلو تخطينا حاجز الظاهر المختلف ألوانه وصوره ، ونفذنا إلى ما وراء هذا الظاهر لألفينا الأمر منضبطاً يدور على ما وصفتُ ، لا يكاد يشذ عن ذلك بشىء إلا ما أملته التقية حيناً ، وفرضته الأهواء السياسية حيناً ، وأوحى به عبث النفس حيناً آخر

وتفكير أبى العلاء فى الجبرية يتخذ صورتين غير متباعدتين إلا تباعد الشىء عن مظهره ، فهما يبحثان فى الكون وأحد مظاهره وهو الاجتماع

* * *

وأول ما يشغله فى الاجتماع الأرزاق « والأرزاقُ عجبٌ يقسومُها[2] » إذ أن الرزق لو أن له « لساناً هتف بمن رقدَ ، أو يداً لجذب المضطجع باليد، أو قدماً لوطئ على الجسد، لا يزال الرزقُ مرنّقاً على الهامة ترنيق الطير الظماء على الماء المطمع ، فإذا صفير الروح الجثمان ، صارت تلك الطيرُ نباديد[3] » ، « فاردُدْ من حيث شئت ولا تُبلْ ، أمن واد أتاك الرزقُ أم من جبل . فإن ألطاف الله طارقتك من كل أوْبٍ[4] » وهو يدعوك ألا تحزن، ويؤكد لك أنه «ليأتينك رزقك ولو جُمع من أشتات[5] »

(١) ص ٦١ (٢) ص ٢٥١ (٣) ص ٣٧٤ (٤) ص ٢٨٣
(٥) ص ٢٤٢ (٦) ص ١٣٦ (٧) ص ٣٦٩
(٨) ص ١٦٥ (٩) ص ٤٤٨

(١) ص ٤٧٢ (٢) ٢٧٤ (٣) ص ١٣ (٤) ص ١٥٩
(٥) ص ٢٣١

« وذلك بقدَر الله لا بسعي الساعين [١] » وهو يلاحظ إلى ذلك أن من الناس من لا يعمل ولا يجد ولكنه يظفر بما يظفر به ذلك العامل المجد « الله علم بمار خرص ، ضُيِّقَ رزقه وإن سرص ، وآخر تغدو عليه منعمة بيضاء ، قَطعت إليه الفضاء [٢] » فهو يرى أن كثيراً منهم يبذل جهداً كبيراً فلا يظفر بشيء « فالموفق أين اتجه غانم ، والمجدود أين يقع لا يظفر بالنجاح [٣] » وأنه ربما عسَّ جد ، فأتاك يمنجد ، وأنت هارج الأحلام »

فهو يلحظ في كل هذا أن الرزق ميسر لك « ما سمتْ فيه القدم ولا عرق الجبين » وهو يردد ذلك المعنى في اللزوميات كثيراً

سُبب الرزق للأنام فما يُقـ ـطع بالعجز ذلك التسبيبُ

وهو يلحظ أن هذا التسبيب يجري في عسره ويسره على قواعد خفية غير مفهومة :

جدٌّ مقيمٌ وخابَ ذو سفر كأنه في الهجير حرباء
أقضيةٌ لا تزال واردةً تحارُ في كونها الأبِبَّاء

وهو يلحظ إلى هذا إرادة علوية تسخر من محاولات البشر وتقديرهم « فالمرء يقدر ولغيره الأمور ، يحسب أنه يملك ويحوز . كذب ! لله النفوس »

ولم يقتصر بفكرته هذه على الإنسان وإنما شمل بها الحيوان من ناحية الرزق والمقدور معاً . أما من ناحية المقدور فهو كالإنسان تجري عليه الأقدار — غامضة مبهمة — لا يد له فيها أو علم له بها فيدرأها . فالمخلوقون جميعاً « يحيدون من خطب إلى سواه والحمام ساقة جيوش الخطوب. ما ألطف صانع الظبية تنظر بجنحي ليل، وترفع هُدَّالَ الشجر بقضيبي ظلام ، وتلبس حلة الوبر وتطأ على مثل المحار ، أغلقتها أمس الحبالة فخلصت بالجريض ، وصادفتها في اليوم ضراء المكلب فكاد إهابها ينقد عن قلب مروع ، وسلمت بعد الشد المحيص ، وفي الغد تنتظمها بعض مبهام المرتعين ، فلم يضها الفرق من الأحداث [٤] » . وهو يسوي بين الحريص والأخرق من الحيوان والإنسان في المقدور « ما خشَّف ذو خرق وقع في حبالة آبق ، فنشق أشد النشق ، أعيا بخلاصه مني بالخلاص »

ومن ناحية الأرزاق كذلك تجري عليه في نفس الغموض الذي تجري به على الإنسان: تيسر للظليم الحمص وإن سعد فالهبيد، فينمو على الحمص والهبيد ؛ وتخص الإبل بالسعدان ، فيغدو الإبل هذا السعدان ، وكذا الخيل تنمو بالبعضيض . ثم إن الحمار لا يكاد يصبر على عطش والظبي طويل صبر على العطش ، فهو يسجل هذا جميعاً ويتساءل لم خصت الطبيعة هذا بذاك ولم تخصه بغيره ، ولم لم ينتقل الظليم إلى المراعي والأرض « الغراء المتألقة » فيسعد بالعشب والنبات ؟

إذن فالحيوان كذلك لا تسير عليه الأرزاق حسب قاعدة مفهومة . فنحن لا خيرة لنا إذن في تقبل هذا ورفض ذاك ، لا خيرة لنا في كسبه وملاءمته للطبع والانتفاع به

فهو بكل الأمر جميعاً إلى نظرية الجبرية والجبر المطلق الذي لا تقيده إلا هذه القيود التي لا يتبين أبو العلاء علام كانت وبأي حكمة بنت أحكامها في العطاء والمنع ، في الخفض والرفع . وعلى ذلك فهو لا يلوم المجتمع من هذه الناحية ، ما دام الناس ليس لهم بما يجري بهم يدان ، وليس لهم في أرزاقهم تصريف . إذن فما يكون من فروق بينهم بنيت على هذه الاقدار والأرزاق فهي تافهة وليست بذات خطر ولا أهمية

ونحن إذا وصلنا إلى هذه المرحلة من تفكير أبي العلاء نجد أنفسنا أمام رجل يثور دواماً على المجتمع ونظامه ، يعدد آثامه وأخطاءه يائساً من إصلاحه والسير به إلى الخير والعدل والأمان ، حامداً فلسفته التي ألهمته الاعتزال « فإن الوحيد في السالم لا يلحقه عيب من سواه » ، ويدعو إلى إصلاح بالتعاطف والتراحم والمودة

وثورته على النظام الاجتماعي نتيجة مباشرة لآرائه الجبرية . فهو كما قلت لا يريد أن يبني أحكاماً على أشياء سبق بها القدر فهي خارجة عن حدود تصريف البشر : لا يريد أن يرفعك لمال أو فضل أتاك به الجد والمقدور ، وهو لا يريد أن يحقرك لفقر لم تكن لك به يدان وأعيي الحيلة تحايلك عليه . هو لا يريد أن يسلك هذا المسلك الذي سلكه كل الناس وعليه بنى المجتمع أحكامه . فهذه المقادير تجري على نظم لو كانت بيد الخلق لغيَّرتها

(١) ص ٢٧٢ (٢) ص ٢٩٠ (٣) ص ١١ (٤) ص ١٦٩

تغييراً يقلب من هذه الأوضاع التي جعلت الفاجر مجتبى والفاضل مهضوم الحق معدماً . ثم « إن الناس بنو رجل وامرأة ، ما أدنى المُؤْتَشَبِ من اللُّبابِ » . فأيّا ما كان الاختلاف بين الناس فهو لن يخرجهم عن الجنس ولن يقوم بينهم وبين أن ينتسبوا جميعاً إلى صفات مشتركة عامة ، و « الناسُ في عدل الله سواء . هم سواء رغم اختلاف طبقاتهم وأوضاعهم الاجتماعية وتقدير المجتمع لهذه الاختلافات والأوضاع . فمجيئنا إلى الحياة واحد ، وخروجنا من الحياة واحد كذلك . وما دمت ستنتهي إلى غاية تستوى فيها الناس جميعاً ، مهما تكن أوضاعهم الاجتماعية ، فجدير بك أن تخفف من التغالي ، وألا تسرف فيما بينك وبين غيرك من فروق حكمت بها الأقدار وقدرتها تقديراً ، وجدير بك أن تعطف على الفقير وأن ترأف به: «فمن ذَخر جميلاً وجده عند الله » ولا أحد « بالشحّ أمرك وعلى الدنيا أمرك » من ؟ « أخالقك الذي صورك ؟ كلاّ . وعظمته لقد أنذرك ! »

هذا نظر أبي العلاء في ظاهرة من ظواهر الكون ، فأما نظره في الكون نفسه ، فهو امتداد لتلك الفكرة أو أصل لها على وجه أصح .

« لبحث صلة »

السيد محمد العزاوي